الآثار الغيبية في الشعر
بين الجاهلية والإسلام

المدرس المساعد

ضياء علي عبد الرضا

جامعة البصرة- كلية الآداب

الآثار الغيبية في الشعر بين الجاهلية والإسلام

المدرس المساعد
ضياء علي عبد الرضا
جامعة البصرة- كلية الآداب

المقدمة

النظرية المادية – المحاكاة-:

فأما النظرية الأولى فتستند إلى ((النغم والعمل وتقول :بأن التنغيم او الترديد المرافق لطبيعة نوع من العمل هو الدافع لظهور الشعر))[١] .ومن هذه النظرية ينبثق القول :أن الشعر في نشأته قد ارتبط بوقع أخفاف الإبل وما تحدثه حركاتها المختلفة من أصوات ذات إيقاعات مختلفة وقد أطلقوا على هذه الإيقاعات تسميات عديدة ومن هذه التسميات الراقص والراقصة وقد جاءت هذه التسميات بالنظر إلى طريقة سير الناقة وحركاتها وما تحدثه من صوت رتيب تهتز له وترقص .قال الشاعر:[٢]

حَلفتُ برب الراقصات إلى منى رفيقاً وربّ الواقفين على الحبلِ

ولعل من أثارها بعض التسميات التي تطلق على أنماط شتى من سير الإبل وأفعالها و حركاتها وأصواتها كالرجز والخبب والرمل وهي تسميات تستند إلى الواقع الصوتي ذي الإيقاع الرتيب ومنها اشتقت العرب بعض المصطلحات العروضية استناداً إلى هذا الواقع من الأفعال والأصوات والحركات .ويرى بعض الدارسين إن رجز الحداء من أجلى الظواهر الصوتية التي ينفّس فيها الحادي عن كربه[٣] ويسّري عن حزنه لفراق الأحبة وشوقه الذي استبد به ويخلع كل هذه

المشاعر على ناقته وكأنها سواء يُعين كل منهما الأخر بتجاوب يدل على عميق الصلة بينهما .يُفهم من هذا الكلام الصلة الوطيدة الفعالة بين الناقة وأفعالها وحركاتها وأصواتها وعملية الإيقاع الشعري عند العرب. ولعل من الملازمة الطريفة التي تعزز ذلك ما روي عن الرسول (ص)من الحديث الشريف القائل ((لا تترك العرب الشعر حتى تترك الإبل الحنين)) [٤]. فاختيار حنين الإبل لتأكيد حقيقة الشعر الشائعة عند العرب لا يخلو من فائدة تتصل بالأثر الصوتي على عملية إبداعه عندهم. ثم انتقل هذا الأثر إلى أغراض أخرى .ومثل هذا الحنين كل رجز يواكب عملاً من الأعمال التي يقوم بها المجتمع الجاهلي وقد استمرت هذه الظاهرة إلى ما بعد الإسلام ولها شواهد كثيرة لا يتسع المقام للتفصيل فيها هنا[٥].وأذن فليس الشعر في أوليته وأصوله عند أصحاب هذه النظرية سوى محاكاة لواقع عملي وصدى لأفعال وأصوات وحركات ؛ ويمكن الرد على هذه النظرية بأمرين اثنين :

الأول :أن ظاهرة الوزن والتنغيم في الشعر ليست مقصورة على العرب وحدهم وإنما وجد في تراث أمم كثيرة شعر موزون ذو ترانيم وبحور ولم تكن هذه الأمم تعرف الإبل ولا ركوبها .

الثاني:أن كثيراً من الأعمال المهنية التي يتعاطاها الإنسان خالية من التنغيم والإيقاع.

النظرية الدينية- الإلهام-:

أما النظرية الدينية فتستند إلى أعمال خارقة للعادة ذات وظائف غريبة كانت شائعة في واقع الحياة الجاهلية .وقبل الخوض في هذه النظرية لابد من الإشارة إلى أن الشعر العربي القديم قد مرّ بمرحلة مجهولة المعالم غامضة الأصول استوعبت حِقباً طوالاً قطع فيها الشعر العربي شوطاً كبيراً قبل أن ينضج فنياً ويصل إلى صورته الكاملة التي دوّن عليها.وهذه المرحلة الموغلة في القدم هي

التي بني الباحثون عليها نظرياتهم في الشعر العربي القديم وقد بدا لبعضهم أن يسمّيها.((الغيبوبة العقلية يوم كانت الصلة بين الشعر وبين التنبؤ بالغيب قائمة حيث كانت مهمة الشعر كهنوتية ولغته غامضة ومبهمة كطلاسم الكهان وأحجية السحره ورقاهم وتعويذاتهم وهي مرحلة مطموسة ذاهبة لم يصل إلينا منها شيء)) [٦] .

ولدى التأمل الطويل في هذا الموروث الشعري المدوّن الذي يمثل مرحلة متقدمة في تأريخه يبدو للباحث بعض الملامح الغيبية التي تدل على مسحة دينية وردت بين ثنايا شعرهم .ومن ذلك ما نراه واضحاً في أدب ترقيص الأطفال الذي كان وما يزال شائعاً من معاني دينية ودلالات ذات إيحاء غيبي تؤيد هذه النظرية إذ يصحب هذا الترقيص مقطوعات شعرية غالباً ما تكون من بحر الرجز يتضمن الدعاء للطفل والتنبؤ بمستقبله الميمون.كقول أم عقيل بن أبي طالب : [٧]

أنت تكون السيّد النبيلُ إذا تهبّ شمأل بلـــيلُ

يُعطي رجال الحي او يُنيلُ

((ونستطيع أن نلمح اثر الرموز السحرية في أغاني الترقيص بشكل واضح حتى إن النويري يروي لنا شعراً قالته جنيه في طفل أرادت خطفه فلم تقدر عليه لكثرة ما علقت عليه أمه من الخرز والعظام والتمائم فلما لامها قومها من الجن على ذلك قالت تعتذر إليهم:

كان عليه نفـــَرَه ثعالب وهـــــرَرَه

والحيض حيض السمره

أي كان عليه ما يجعلني انفر منه من (سن الثعلب)و ((سن الهرة)) وثمرة من شجرة السمرة حمراء مثل دم الغزال)) ((فالنسوة يرددن هذا الشعر لأطفالهن تفاؤلاً. وهو يحمل في طياته معالم أولياتنا الشعرية))[٨]. ومما يدل على قدسية الشعر وأثره الغيبي انه ((كان أحيانا لا ينشد في الجاهلية إلا على وضؤ كالذي فعلوه مع قصيدة المتلمس))[٩]. وفي رواية تعليق المطولات السبع على

أستار الكعبة دلالة واضحة على تقديسهم الشعر. فاختيار الكعبة موضعاً لحفظه إشارة تفيد الاعتقاد بقدسية الشعر لأن الكعبة هي المكان المقدس الذي يستوعب كل ما هو مقدس عند العرب .وفي رواية عن كعب الأحبار يقول ((أجد في التوراة قوماً من ولد إسماعيل أناجيلهم في صدورهم ينطقون بالحكمة ويضربون الأمثال لا نعلمهم إلا العرب))[١٠]. وفي هذه الرواية دليل على اقتران الشعر بالكتب السماوية إذ تفيد لفظة أنجيل معنىً دينياً وان الراوي استشعر معاني دينية شبيهة بما أُنزل على عيسى(ع) فاكتسبت من اجل ذلك إشعار العرب هذه الصفة لما بينها وبين الإنجيل من خصائص مشتركة؛ ثم العبارة ((ينطقون بالحكمة)). هي الأخرى ذات دلالة دينية إذ وصف بها القرآن الكريم في أكثر من موطن في قوله تعالى (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)[١١]. ويؤيد ذلك قول الرسول (ص) ((إن من الشعر لحكمة)) [١٢] يعني إن منه ما يشبه التنزيل السماوي في نفحاته القدسية وومضاته الإلهية ودلالاته المحكمة. ويتجلى واضحاً الأثر الغيبي الذي يتركه الشعر في نفوس سامعيه حتى يبلغ به الأمر إلى إن يكون اشد من وقع السهام وفي هذا المعنى حديث الرسول (ص)يخاطب به حسان ابن ثابت ((اهجهم –يعني قريشاً–فوالله لهجاؤك اشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام ،اهجهم ومعك جبريل روح القدس))[١٣]. ويروى إن لجبريل الأمين ما يقارب سبعين بيتاً في إحدى[١٤] قصائد حسان. وقد ذهب بعضهم إلى إن سفر أيوب[١٥] كان شعراً ملحمياً بلهجة عربية .وإذا صح كل ما تقدم وهو رهن أمانة الرواة وصحة مروياتهم فانه يقوم دليلاً ناهضاً يعزز نظرية الأصل الديني للشعر العربي .وثمة دليل آخر يسهم في تعزيز هذه النظرة الغيبية إلى الشعر يرتبط بوظيفة الشاعر واقتران فعله الغيبي بفعل الكاهن والعراف والساحر وهي من الأعمال ذات الأثر الغيبي الفعال في وجدان ذلك المجتمع العربي الجاهلي. ومما يؤكد ذلك إن شعراء كهاناً أمثال أمية بن أبي الصلت الذي اشتهر بمواقفه الغيبية العديدة. وهو شاعر معروف في الجاهلية. عُرف بتكهنه وخوضه بالمغيبات وورود الألفاظ ذات

الدلالات الدينية والغيبية في شعره. وقد ظن مرجليوث ظناً حين قال ((ربما كان ما تُبيح لنا الشواهد القرآنية قوله: انه كان قبل الإسلام بعض الكهان من بين العرب كانوا يُعرفون باسم الشعراء كانت لغتهم غامضة مبهمة كما هو الشأن دائماً في الوحي)) [١٦]. وفيما نطالعه من الروايات المأثورة أن العرب كانوا يجعلون الشعر وسيلة للاتصال بالغيب عن طريق مخاطبة الأموات، وقد بدا هذا واضحاً فيما روي من بعض قصائد الرثاء لقتلاهم اذ دلّت على اعتقادٍ لهم كان سائداً في الجاهلية. ((فالرثاء المفقود لو وصل إلينا لكان محض اشعارٍ تؤدي في صورة ترانيم تُلقى على مسامع القتلى وهم في طيات لحودهم...فالقصيدة المفقودة تُقال للميت يسمعها فيطمئن في قبره فلا يتحول إلى هامة أو ((صدى)) وهو طائر يصيح :اسقوني اسقوني وهذا ما نراه واضحاً في قول ذي الإصبع العدواني:[١٧]

يا عمرو ألا تدع شتمي ومنقصتي أضر بك حيث تقول الهامة اسقوني

وتشير هذه الجذور العميقة والمعطيات الدينية إلى الأصول التي قام عليها شعر الرثاء فهي بمثابة بصمات تركتها القصيدة الغيبية الأولى على جسد القصيدة الواقعية الجديدة في الشعر الصغير السن الحديث الميلاد الذي لا يتجاوز تاريخ ظهوره مائة وخمسين عاماً او مائتين إذا استظهر غاية الاستظهار))[١٨]. ويرى بعض الدارسين في الأسجاع التي كانت شائعة عند الكهان مصدراً يعود إلى شعر الملاحم القديمة وان هذه الأسجاع يصحبها ترانيم طقسية وسحر كثير ولعلها انحدرت من أساطير الأولين التي تضمنتها فنون الشعر الملحمي القديم الذي يختلط فيه غيب كثير واستلهام من الآلهة حيث كان الشاعر اليوناني يبدأ قصائده بأن يستمد العون من الآلهة كمصدر من مصادر إبداعه فيفتتح شعره بقوله: ((غني غني ربات الشعر)) [١٩]. راداً بذلك قوى الإبداع إلى الآلهة وقد ظل هذا المفتتح الذي يبدأه الشعراء وغير الشعراء سائداً ومن صوره التي تحولت فيما بعد ظهور الإسلام إلى اعتقاد ديني يُتيمّن به ويُستوحى منه قوى غيبية تُعين على

استحضار المعاني وتُقوّي الذاكرة فنرى الافتتاح الديني متكرراً ومدخلاً لابد منه في كل خطبة وحديث ومن مراسيمه التي لا زالت صورها الاستفتاح بالبسملة والحمدلة والثناء ثم الصلاة والسلام على الرسول وآله ومن العبارات الواردة قولهم (يا مشتاق عَ النبي صلّي)أو (يا مسعدك يااللي تصلي على النبي)وينهيها (اعشق جمال المصطفى محمد تصلي عليه).((والشاعر الشعبي لا يبدأ روايته وينهيها بهذه العبارات ليجذب الجمهور نحوه ويشد انتباهه لما يقول فقط وإنما يستمد العون من الرسول في المعتقد الشعبي مصدراً من مصادر المعرفة))[٢٠].

وفي تراثنا الإسلامي ما يعزز هذا الاعتقاد إذ نطالع في تأليف القدماء عنوانات كثيرة للكتب القديمة الدالة على دور الاستلهام والوحي في عملية الإبداع على نحو ((الفتوحات الإلهية)) [٢١] و((الفتوحات المكية)) [٢٢]و((فتح الرحمن))[٢٣] و((فتح الباري)) [٢٤] ولا زالت هذه العنوانات توحي بهذا المصدر الغيبي للإبداع في كتب المعاصرين ولا سيما كتب تفسير القرآن الكريم مثل ((مواهب الرحمن))[٢٥]وغيرها.

شياطين الشعر:

وإذا عدنا إلى بواعث قول الشعر عند العرب ومصادر إبداعه على نحو قولهم بالإلهام او إملاء شياطين الشعر فسنقف على اعتقاد لهم كان شائعاً وهو (أن مع كل شاعر شيطاناً) يلهمه قول الشعر ونطالع بعض الشعراء يفخرون بنسبة الشعر إلى هولاء الشياطين المُلهمين، فالأعشى يفخر بحسن اختياره لـ ((مسحل)) فيقول فيه:[٢٦]

حباني أخي الجني نفسي فداؤه بأفيح جياشٍ من الصدر حضرمِ

ويقول أيضا:

دعوتُ خليلي مسحلاً ودعوا له جهنام جذعاً للهجين المذمّمِ

ويروى قصصاً عجيبة له مع شيطانه هذا .وقد جعلوا لكل شاعر شيطاناً يُدعى بأسم له وقد تعمق بعض الشعراء فيما بعد فزعم انه قادر على معرفة الأنثى من الذكر .قال العجلي:[٢٧]

إني وكل شاعر من البشـــــر شيطانه أنثى وشيطاني ذكـــــرْ

وأما موطن هؤلاء الشياطين الملهمين فهو مكان يقال له ((عبقر)) ((ومن هذا المكان يمنح الجن البشر إبداعاتهم ويختصون من يريدون منهم ليكونوا واسطتهم إلى الناس)) [٢٨]. وقد أطلق هذا الاسم على كل ماهو خارق، فإذا نبغ شخص في علم من العلوم نسبوه إلى هذا الوادي وإذا بلغ الشيء الغاية من الحسن والإبداع سموه ((عبقري)) ((وهذا المكان مع ارتباطه بكل ما هو خارق للعادة ارتبط بعالم الشعر ارتباطاً كبيراً وأصبح من الطبيعي أن يكون موطن الجن الخالقة للشعر...وقامت عبقر في المجتمع الجاهلي مقام الاولمبي في المجتمع اليوناني واصبحت تقف في مقابلها))[٢٩]. وبذلك يتحدد مكان عملية الإبداع بهذا المصدر الغيبي الذي يصدر عنه قول الشاعر بإملاء قوى خارجية غيبية وليس الشاعر فيها سوى وسيط او رسول ناقل ليس إلا. وثمة اثر غيبي يرتبط بالقوى التي كان يُعتقد إن الشاعر يحملها وبها يدافع عن نفسه ويؤثر في خصومه وأكثر ما يكون هذا المعتقد عندهم في الهجاء حيث كان قبل ((قبل أن ينحدر الهجاء إلى شعر السخرية والاستهزاء كان في يد الشاعر سحراً يقصد به تعطيل قوى الخصم بتأثير سحري ومن ثم كان الشاعر إذا تهيأ لإطلاق مثل ذلك اللعن يلبس زياً خاصاً شبيهاً بزي الكاهن ومن هنا أيضا تسميته بالشاعر أي العالم لا بمعنى انه كان عالماً بخصائص فن او صناعة معينة بل بمعنى انه كان شاعراً بقوة شعره السحرية ، كما أن قصيدته كانت هي القالب المادي لذلك الشعر)) [٣٠] .وثمة اثر غيبي أخر للشعر يكمن في الكلام المؤلف منه وما يشعه من إيحاء سحري له فعله الفاعل في وجدان السامع وقد ذهب بعضهم إلى أن اهتمام العرب بالشعر والاحتفاء بشاعر ينبغ والافتخار بالمآثر الأدبية يرجع إلى((طبيعة الشعر ذاته، وعقيدة الناس منذ

القدم في اثر الكلمة ومالها من قوة فعالة .ومن ثم كانت القبيلة ربما آثرت أن ينبغ فيها شاعر على أن ينبغ فارس ، وذلك لإيمانهم بأن فعل الكلمة أقوى من فعل السيف. لقد كانوا يؤمنون في قراره نفوسهم بأن للكلمة قوة سحرية كامنة فيها))[٣١]. وكلمات الشاعر لها وقعها المؤثر عند العرب ولا سيما في الهجاء ولطالما كان العرب يتهيبون الشعراء ويخشون هجائهم ويتحاشون التعرّض لهم بالأذى ولكبير خطر الشعراء وشديد اسر كلامهم الشعري في نفوس الأفراد فقد أعلى المجتمع الجاهلي من شأنهم وأبدى مراسيم خاصة لتكريمهم والإشادة بعلو قدرهم ومنزلتهم في الحياة الاجتماعية ((فإذا نبغ في القبيلة شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعْبن بالمزاهر كما يصنعْن في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد مآثرهم وإشادة بذكرهم وكانوا لايهنئون إلا بغلام يولد او شاعر ينبغ او فرس تنتج))[٣٢].

أثر الكلمة في الاعتقاد الديني:

أما اثر الكلام في الاعتقاد الديني فواضح كل الوضوح في الدعاء وما يتبعه من آثار غيبية تفعل فعلها في السلوك الأخلاقي والنفسي عند الأفراد وقد ورد في الحديث الشريف ((لا يرد القضاء إلا الدعاء))[٣٣]. وهذا يعني رد الأثر المحسوس بأثر غيبي صادر عن الكلمات.ولا زال الاعتقاد السائد في مجتمعنا المسلم يؤكد اثر الكلمات في التداوي والاستشفاء لكثير من العلل النفسية والحالات المرضية التي تنتاب بعض الناس إذ يقرأ بعض المؤمنين شيئاً من القرآن الكريم والأدعية فسرعان ما يتجلى اثر ذلك في رد الفعل الذي يظهر على الأفراد، ولا يقتصر الامر على القرآن الكريم أو الدعاء أو الصلاة وإنما يمكن أن نتبين الأثر الغيبي في هذه الأعمال العبادية ولاسيما عند خطب الرسول وأئمة المسلمين . وكذلك كانت خطب الأنبياء والأولياء والحكماء تفعل فعلها لما لها من

آثار غيبية في نفوس السامعين .ولم تكن الكلمات وحدها في مثل هذا الحال هي سر التأثير الغيبي وإنما تتدخل شخصية المتكلم بما تحمل من خصائص تتصل بطبيعة الانفعال الصادر عن المتكلم؛ فالكلمة وحدها لا تعني شيئاً أن لم تكن صادرة عن شيء من ذات المتكلم بها فهو الذي يبثّ فيها قوة من قوته او ضعفاً من ضعفه. وعلى قدر ذلك يأتي تأثيرها الغيبي في السامع وهذا مبحث يطول لا يتسع له المقام هنا. وإذا كان الشاعر الجاهلي لسان مجتمعه المتصدي لكثير من مشاكل المجتمع واقتراح الحلول لكثير من مسائل الحياة فإن هذه المهمة الأخلاقية القائمة على أساس غيبي في أكثر الصاحيان هي من اظهر مهمات الدين وهي رسالة الأنبياء والأولياء والمصلحين وقد رأينا المعاني الأخلاقية قد استوعبت مساحة كبيرة من الشعر الجاهلي ،وهنا يظهر دور الشاعر الجاهلي الأخلاقي الوعظي في توجيه الأفراد عن طريق الشعروانارة نفوسهم عن طريق أثره الغيبي بما أتيح له من التعبير الوجداني عن المسائل الأخلاقية والمصيرية ومعالجة المشاكل الاجتماعية المختلفة .يقول أمية بن أبي الصلت [٣٤]:

إن يوم الحساب يوم عصيب شاب فيه الصغير يوماً طويلا

ويقول زهير [٣٥]:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تُعلَمِ

ويقول طرفة [٣٦]:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوَّدِ

وبذلك يشترك الشاعر مع الواعظ الديني او ينوب عنه في التصدي لكثير من المسائل الأخلاقية والغيبية،وقد يبلغ الوعظ أحيانا حد الترهيب فيكون مفعوله في النفوس مماثلاً لمفعول الدين وتأثيره الوجداني.ولهذا قرن المشركون الوحي بالشعر من حيث أثره الوجداني الغيبي :قال سبحانه وتعالى (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ)[٣٧]. ولما كان الغيب هو المصدر الباعث على الإبداع الشعري عند العرب ـ كما تقدم ـ فان النظرة القدسية إلى الشاعر الجاهلي تأتي

نتيجة اعتقاد بما اختص به من قوى خارقة تفعل فعلها في النفوس؛وإذا ثبت تأثير كلامه الغيبي في النفوس فانه أولى من سواه بان ينهض بهذه المهمة الأخلاقية الغيبية ويؤدي رسالته في الوعظ والإرشاد وهذا ما نراه واضحاً في أمثلة كثيرة لا حصر لها هنا. وفي جانب كبير من هذه الوظيفة الدينية – إذا صح التعبير– تتجلى آثاره الغيبية.

الأثر الغيبي للكلمة في الشعر الإسلامي:

يأتي الإسلام حاملاً إشعاعه الغيبي فيظهر واضحا على شعر الشعراء المؤمنين بالغيب والمصّدقين بكل ما نطق به القرآن الكريم واخبر عنه الرسول الصادق الأمين صل الله عليه وآله وسلم. وصار من المألوف أن يصرّح الشاعر في كثير من المواقف عن هذا الاتجاه الغيبي في الشعر الذي له ما يدل عليه ويكشف وجه الغرابة عنه وقد مرّ أن الرسول الأكرم صل الله عليه وآله وسلم كان يقول لحسان بن ثابت (أهجهم ومعك جبريل روح القدس) وأن روح القدس نطق على لسان حسان حتى أُحصي ما يقرب من سبعين بيتا نطق بها جبرائيل عليه السلام على لسان الشاعر.ونطالع في العهود الإسلامية اللاحقة شعرا كثيرا قيل على لسان الجن الأمر الذي يدل دلالة ساطعة على شيوع هذا اللون من الشعر في ظل القرآن الكريم الذي قطع برهان وحيه الجَدَلَ في حقيقة عالم الجن وانه يجري عليه ما يجري في عالم الإنس من السنة الكونية والتكليف الإلهي فهناك سورة باسم الجن تتحدث عن هذا العالم الغيبي وتدل علي وجوب الإيمان بهذا العالم في جملة الإيمان بالمغيبات التي أقرّها واخبر عنها القرآن الكريم.وبعد واقعة ألطف الخالدة روي شعر كثير لم يعرف مصدره ورُجّح أن يكون قد نُظم علي لسان الجن في رثاء الإمام الحسين عليه السلام ومن ذلك ما يُرْوى أن حجراً عُثِر عليه مكتوبا فيه هذا الشعر: (٣٨)

أنا درٌّ من السماء نثرونـــــي يوم تزويج والد السبطيـــــن
كنت أصفى من اللجين بياضـا صبغتني دماء نحر الحسيـــــنِ

وسُمع هاتف من السماء بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام في يوم العاشر من محرم الحرام يقول: (٣٩)

أيها القاتلون جهلاً حسينـــــاً أبشروا بالعذابِ والتنكيـــــلِ
كل أهل السماء يدعو عليكـــم من نبيٍ ومرسلٍ وقتيـــــلِ
قد لُعنتم على لسان ابـــن داود وموسى وصاحب الإنجيـــــلِ

وتعد رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ورسالة التوابع والزوابع لأبن شهيد من أظهر الآثار الغيبية للشعر عند العرب فالأولى رحلة إلى العالم الآخر في الجنة حيث يلتقي أبو العلاء بالشعراء الموتى ويدور ما يدور بينه وبينهم من حوار في مجال النقد الأدبي الذي انحصر في فلك الغيب بعيداً عن هذا العالم المحسوس. واما رسالة التوابع والزوابع فهي رحلة إلى وادي عبقر وهو المكان الذي يسكنه الجن فيلتقي الشاعر الكاتب فيه بأثنين من الجن أحدهما تابعة ، والآخر زابعة ويرحل معه جنّيُه زهير بن نمير هناك معرِّفاً بتوابع وزوابع الشعراء الجاهليين والإسلاميين معاً فيدور ما يدور بينه وبينهم من طرائف أدبية ومواقف نقدية. ومن الآثار الغيبية التي ظهرت إيحاء الشعر ونظمه في عالم الرؤيا أي أن الشاعر يختفي عن وعيهِ فيأتيه البيت منظوماً دون أن يتدخل الشاعر واعياً لنظمه وإنما عليه روايته وحسب ومثال ذلك ما حدث لأبن الفارض في قوله: (٤٠)

وحياة أشواقي إليــ كِ وحرمة الصبر الجميلِ
ما استحسنتْ عيني سوا كِ ولا صبوتُ إلى خلـيلِ

إذ نُظِمَ هذان البيتان في منامه كما أخبر بنفسه عن ذلك وإنه كان مختفياً عن وعيه وفي قصيدته التائية الكبرى مواقف غيبية عديدة كان يمر بها الشاعر في لحظة إبداعه الشعري مختفياً عن الواقع وفي غيبوبة ينقطع فيها عن الأسباب الطبيعية حتى أن عنوانها لم يكن من اختياره إذ كان بعد رؤيا رأى فيها رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أشار عليه الرسول ذلك بعد أن وقع الشاعر في حيرة لاختيار أسم مناسب للقصيدة.

ويُذكر أن شاعراً قد أرِق ذات ليلة في نظم قصيدة يرثي بها أبا الفضل العباس بن أمير المؤمنين عليهما السلام المقتول شهيداً في يوم العاشر من محرم سنة إحدى وستين للهجرة الشريفة حتى إذا بلغ البيت الذي صدرُه:(٤١)

يومٌ أبو الفضل استجار به الهدى

توقف واستنكر أن يكون الإمام الحسين الذي عبّر عنه بالهدى مستجيراً بأبي الفضل فترك الصدر ونام. وفي المنام أتاه طائف الإمام الحسين وعاتبه لأنه لم يُتمّ البيت ثم أمره أن يقول في عجز البيت:

والشمس من كَدَر العجاج لثامها

فكان البيت المعروف في القصيدة. وهذا المقدار القليل يكفي دليلاً على تأثير الغيب في الشعراء العرب وظهور آثاره الواضحة في شعرهم الجاهليين خاصة والمسلمين عامة

الملخص

كلما كانت الكلمة ذات قوة وسحر وتأثير فهذا يعني أنها صادرة عن تجربة صادقة وواقع كان قد شهده المتكلم بكل جوارحه وفي هذه الحالة لا يجد المتكلم عناءً لإيصال ما عنده إلى الجمهور وليس به حاجة إلى التكلف حتى يؤثّر في سامعيه. وان هذه العلاقة الجدلية بين الكلام والمتكلم تختصر إلى الجمهور فهم ما يُراد فهمه مع شيء من التفاعل مع الأفكار المطروحة. وإذا كان الكلام في أي مسألة من مسائل الحياة يقتضي هذه الملازمة بين الكلام والمتكلم فان الكلام في المعاني الغيبية والخوض فيها لابد لكي يفعل فعله الغيبي أن يصدر عن ذات معدّه اعداداً مناسباً لهذه المعاني إذ لا يصح الكلام عن حقائقنا الدينية قبل أن نطهّر ذواتنا وإلا فسوف تفتقر كلماتنا –حتما – إلى القوة والتأثير وهذا مبحث يطول لا

يحتمله المقام هنا.على أن اثر الكلمات الغيبي في الأشياء يعود بنا إلى ماضي الإنسان السحيق في عالمه البدائي يوم كان التصور والتفكير يصدران عن عفوية الإنسان وصفاء طويته فكانت الكلمات ذات قوة غيبية تفعل فعلها في الأشياء ويستعان بها لدفع الأذى والتحصن ضد قوى الطبيعة (فالإنسان الأول رأى في الكلمة أول قوة حية يستطيع بها أن يدفع أذى الطبيعة الحية والصامتة وان يعيش معها في انسجام. وحين أدرك بتجربته أن لمظاهر الطبيعة قوى كامنة فيها لها القدرة على ضره وكانت الكلمة دائما هي القدرة على التحكم في الـ(Mana) او الروح الكامنة في الأشياء فتمنعها من العمل ضده فلم تتغير قداسة الكلمة) [٤٢].
وللكلمة الشعرية عند العرب اعتبار خاص في التأثير بكون صياغتها ومضمونها معا. فأما الصياغة فلها إيقاعها الموزون المؤثر في الوجدان الامر الذي جعلهم يصطلحون على قول الشعر بالإنشاد فيقولون انشد فلان واما المضمون فيحمل في إخضاعه السحري أثرا غيبيا ينبثق عن حالة وجدانية خاصة يمر بها الشاعر دون سواها وهي اقرب إلى اللا وعي منها إلى الوعي ويكون الشاعر فيها تحت تأثير قوة خارجية تتحكم في عملية الإبداع ولهذا جاءت اللغة الشعرية إفرازا لهذه الحالة الغيبية ((فكل لغة شعرية تبدأ بكونها لغة أسرار بمعنى خلق عالم شخصي عالم منغلق على نفسه تماما))[٤٣]. ولم يكن بعيدا عن تصور العرب في ذلك المجتمع الجاهلي ان الكلمة وسيلة الخلق المتحكمة بوجدان الأفراد وطالما قرنوا فعلها بفعل الحجر وجعلوا لها وخزا كوخز[٤٤] الإبر واعلوا من شان البيان واكبروا أهله حتى صار البيان عندهم فخرا من مفاخرهم التي عرفوا بها بين سائر الامم، وصار للكلمة وقعٌ مؤثرٌ في النفوس لعله يعود بنا إلى دلالتها الحسية المشتقة من الكلم وهو الجرح كما جاء في المعاجم[٤٥] اللغوية العربية وكلمه بكلمة كَلْما وكلّمه كلما: جرحه ورجل مكلوم وكليم ،قال :

عليها الشيخ كالأسد الكليمِ

والكِلام:الجراح.

وقد جاء استعمال الكلمة بمعنى القصيدة في قولهم: قلتُ في فلان ((كلمة)) فكأن القائل يريد: أنني قلت من الكلام ما يؤثر في النفوس. وبهذا يكون الشعر من اظهر الوسائل البيانية المؤثرة، وكان لابد من الاستعانة به لسد فراغ غيبي عند العرب في جاهليتهم ولم يُشغَلْ حتى ظهور الإسلام بغير السحر والعرافة والكهانة. ولكلٍّ من هذه الأعمال الغيبية وظائف ذات اثأر غيبية لا تُنكر في واقع العرب الجاهلي .والله اعلم.

أما أثر الكلام الغيبي في الإسلام فواضح كل الوضوح في الآية الكريمة (ولو إن قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الأرض او كلم به الموتى...)[٤٦]؛وفي خطبة المتقين[٤٧] للإمام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب تجلي واضح للأثر الغيبي المحسوس في السامع،وفي الرواية (لا يرد القضاء إلا الدعاء)[٤٨] دليل قاطع على رد الأثر المحسوس بسبب غيبي، وهذه الأمثلة تمثل القمة في بلاغة البيان العربي الذي يكمن سره البلاغي في بلاغة المتكلم وعلى قدر فضله يأتي فضل كلامه وتأثيره في السامع المخاطَب،ولكن هذا التأثير مشروط بالمعرفة وإلا فلا يمكن أن يتجلى أثره على السامع المحجوب عن الله بالذنوب والمعاصي؛ وهذا الحجاب الذي يمنع انعكاس النور الإلهي على القلوب هو الذي يُفقد السامع المحجوب تذوقه بيان المتكلم ويحرمه من نور هداه ،ولا عجب حينئذ إذا صار كلام الخالق عنده مثل كلام المخلوقين.وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام انه كان كلما قرأ القرآن يقول سمعتُ ربي وقرأ ذات مرة آية ورددها فأُغمي عليه ولما سُئل عن سر ذلك قال:(لقد تجلى الله في القرآن ولكن لا تبصرون والله ما زلت اردداها حتى سمعتها من قائلها فغشيني ما غشيني من هيبتها)[٤٩].وهذا هو مصداق سر التأثر ببلاغة وهيبة المتكلم عند العارفين بالله حق معرفته. والله أعلم.اللهم اجعلنا ممن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله الطيبين الطاهرين.

Abstract

Whenever a word has strength ,fascination and impact ,It means it springs from a faithful experiment or reality witnessed by the speaker with all his instincts. In this situation ,the speaker will not find any suffering in communicating what he has of sensations to the audience, and he need not show any exaggeration to impress his listeners .This argument between the speaker and the speech will shorten the way to the audience as these two are what is required to be understood with something of interaction with the provided ideas. If speech in any life issue needs the connection between the speech and the speaker, then for it to be spiritually acting, it must emerge from a soul prepared for these meanings because nothing should be said religiously before cleaning souls. Otherwise, our words would lack the strength and the impact. This is not the research right now. The word impact in things takes us back to the human beings in the earliest ages when imagination and thinking used to come from pure nature and spontaneousness of man. The word power was used to fortify man against the nature powers.The poetic word had special consideration for Arabs as they were behind making it one unit of expression and content. Expression was so influential that Arabs gave it the idiom {anthem}.Content, on the other hand, carries spiritual impression in its magic dominance emerging from special emotional state that the poet passes through. This state is closer to the unconscious than the conscious. In it , the poet is under an external power

The creative process .It is for this reason that the poetic language came as an outcome to that spiritual state .It was not difficult for the imagination of the Arabs ,during the pre-Islamic community ,that a word is the basic medium prevailing the emotions of a person. They connected its impact with a stone strength and made for it a piercing effect and raised the status of rhetoric till became a well-known masterpiece for them .Thus, a word had influential effect in the souls ,which may take us back to its sensational inference

derived from the sense of {injury}as stated in dictionaries .Also, a word was used to refer to {poem} as in the saying: (A word was said about John).This saying means something effective was said about John. Therefore, poetry is the most evident rhetoric means and was used as an aid to fill the vacant times of the Arabs in the pre-Islamic era till the appearance of real Islam without magic and fortune-tellers. For spiritual work , there was a spiritual function never denied by the Arabs in the pre-Islamic period and God knows better. Furthermore, spiritual speech in Islam is very much clear in the Holy Verse of the Quran or in the speech of Imam Ali named (the believers speech) .Equally important in the following saying: (A terrible fate is eliminated only by a faithful beseech for God).This is a very clear proof that touchable things can be omitted through spiritual causes.

الهوامش

(١) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ص٥٦.

(٢) ديوان حميد بن ثور الهلالي ص١٢٣.

(٣) المكونات الأولى للثقافة العربية ص٢٨.

(٤) العمدة١/٤١ راجع البيان والتبيين٣/٢٦ –الحيوان ١/٧٣-٧٤.

(٥) راجع للتفصيل في هذا الموضوع كتاب الوعي والفن ص٦١ فصل الإيقاع وص٧٤ ومابعدها.

(٦) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ص٤٥.

(٧) أغاني ترقيص الأطفال/تأليف احمد أبو سعد ص٦٢.

(٨) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ص٥٦.

(٩) الاصمعيات (ق ٩٢) وانظر طبقات النحويين من اللغويين ص٣٢ قبل الإسلام ص٥٢ .

(١٠) العمدة١/٢٥.

(١١) سورة الجمعة ٢.

(١٢) صحيح البخاري ٧/ص١٠٧ كتاب الأدب وقد ورد بهذا اللفظ ((إن من الشعر لحكمة)).

(١٣) العمدة ١/٢٧.

(١٤) المصدر السابق ص٣١.
(١٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٢٧/١.قول الرسول لحسان في البخاري .فصل استقبال القبلة ١١٦/١ ورد هكذا :اللهم أيده بروح القدس وفي كتاب الأدب من الصحيح ١٠٩/٧ وفي صحيح مسلم ٧/٧،١٦٥/١٦٣وفي الترمذي أن الله يؤيد حسان ماينافح –باب ماجاء أن من الشعر لحكمة /ص٢١٧
(١٦) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ،ناصر الدين الاسدص٢٥٥.
(١٧) المفضليات قصيدة ٣١.
(١٨) الحيوان ج١ ص٧٢.
(١٩) الياذة هوميروس واوديسته تبدأ بعبارة ((غني ربات الشعر))وكذلك قصائد الشعر الغنائية اليونانية ،انظر مجلة فصول:٢٠م٤٠ سنة ١٩٨٤ ص٤٤.
(٢٠) مجلة فصول م٤،العدد الثاني مارس ١٩٨٤ ص٤٥.
(٢١) كتاب في إعراب القرآن.
(٢٢) كتاب في فلسفة التصوف لمحيي الدين بن عربي(٦).
(٢٣) كتاب في التفسير.
(٢٤) كتاب شرح لصحيح البخاري.
(٢٥) كتاب في تفسير القرآن .
(٢٦) ديوان الأعشى ص١٨٨.
(٢٧) ديوان أبي النجم العجلي،ص ٨٦
(٢٨) مجلة فصول م.٤ ع-٢-ص٤٧.
(٢٩) المصدر السابق ص٤٧.
(٣٠) تاريخ الأدب العربي بروكلمان ٤٥/١.
(٣١) المكونات الأولى للثقافة العربية ص٤١.
(٣٢) العمدة ٣٧/١.
(٣٣) سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح باب لا يرد القدر إلا الدعاء ص٣٠٤ حققه وصححه عبد الوهاب عبد اللطيف ،دار الفكر للطباعة والنشر وينظر الكافي باب الدعاء وقد ورد على هذا النحو إن الدعاء يرد القضاء وقد نزل من السماء وقد ابرمن إبراما،الأصول من الكافي ٤٦٩/٢باب:أن الدعاء يرد البلاء والقضاء..
(٣٤) ديوان أمية بن آبي الصلت ص٥٧.

(٣٥) ديوان زهير ص٦٠.
(٣٦) ديوان طرفة ص١٢.
(٣٧) القرآن الكريم(الطور. ٣٠).
(٣٨) الإمام الحسين في بحار الأنوار سيد جمال أشرف
(٣٩) انتشارات المكتبة الحيدرية ص ١٢ الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ
(٤٠) شعر عمر بن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي ص ٥٨.
(٤١) معالي السبطين ج١ ص ٤٣٥.
(٤٢) مجلة فصول م:٤.ع-٢-ص٤٣.
(٤٣) م.فصول .م.٤،ع:٢ ص٥٢.
نقلاً عن:
Sliade , Mircea shamanism , Archaic techniques of ecstasy.
(٤٤) قال النابغة ((والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبرُ))
(٤٥) لسان العرب مادة :كلم.
٤٦ سورة الرعد ،الاية٣١
٤٧ نهج البلاغة،خطبة المتقين ،الجزء الرابع ص ١٠١
٤٨ سنن الترمذي ص٣٠٤
٤٩ عوالي اللآلي ،الجزء الرابع ص١٦

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
١- أغاني ترقيص الأطفال، أحمد أبو سعد، ط٢، كانون٢ ١٩٨٢ دار العلم للملايين
٢- الأصمعيات، عبد الملك بن عبد الملك، تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون،الطبعة الثانية،دار المعارف بمصر
٣- الإمام الحسين في بحار الأنوار، سيد جمال اشرف انتشارات المكتبة الحيدرية ١٢ الطبعة١ سنة ١٤٢٤هـ
٤- البيان والتبيين - عمرو بن بحر الجاحظ،تحقيق حسن السندوبي،الطبعة الثالثة،مطبعة الاستقامة ،القاهرة

٥- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، مصطفى عبد اللطيف جاووك، عادل البياتي، نوري حمودي القيسي،دار الحرية للطباعة – بغداد ١٣٩٩هـ
٦- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، د. عبد الحليم النجار – دار المعارف بمصر د.ت
٧- الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، طبعة بولاق ١٣٠٨هـ.
٨- ديوان أبي النجم العجلي،جمع وتحقيق الدكتور سجيع جميل الجبيلي،دار صادر،بيروت – ط١-١٩٩٨م
٩- ديوان الأعشى، تحقيق لجنة الدراسات في دار الكتاب اللبناني بإشراف كامل سليمان ط١ دار الكتاب اللبناني.
١٠- ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعت عبد العزيز الميمني ١٣٧١هـ الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة
١١- ديوان طرفة بن العبد، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٠هـ ١٩٦١م
١٢- سنن الترمذي،حققه وصححه عبد الوهاب عبد اللطيف،دار الكتب للطباعة والنشر
١٣- شرح ديوان أمية بن أبي الصلت- قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب،احمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان.
١٤- شرح ديوان زهير ابن أبي سلمى، صنعة أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤هـ
١٥- شعر عمر بن الفارض – دراسة في فن الشعر الصوفي، د.عاطف جودة نصر- دار الأندلس
١٦- صحيح البخاري، البخاري شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم بيروت – لبنان ١٤٠٧هـ
١٧- عوالي اللإلى العزيزية في الأحاديث الدينية، المؤلف ابن أبي جمهور الاحسائي،تحقيق:السيد المر عشي مجتبى العراقي،مطبعة سيد الشهداء، قم المقدسة،١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م
١٨- العمدة، الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر ط٢
١٩- القصائد الهاشميات والقصائد العلويات، الكميت الأسدي، ابن أبي الحديد المعتزلي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان ١٩٧٢م
٢٠- لسان العرب،أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري-ط١-دار صادر-١٩٩٧م-بيروت -لبنان

٢١- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر ١٩٥٥م
٢٢- معالي السبطين في أحوال الحسن والحسين – محمد مهدي الحائري- منشورات الشريف الرضي – الطبعة الأولى
٢٣- المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، ط٢ ١٤١٣هـ جامعة بغداد
٢٤- المفضليات، تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون،دار المعارف بمصر
٢٥- المكونات الأولى للثقافة العربية،دراسة في نشرة الآداب والمعارف العربية وتطورها،دار الشؤون الثقافية العامة،وزارة الثقافة والإعلام،ط٢ بغداد ١٩٨٦

الدوريات

مجلة فصول، المجلد الرابع العدد الثاني سنة ١٩٨٤م،الوقوف على الطلل،محمد عبد المطلب.معلقة لبيد دراسة وتحليل،محمد صديق غيث